نفسها من الأسلحة الثقيلة التي يملكها الخصم. هذا الأمر سيخلق حالة تعاطف مع البيئات الشعبية المحيطة بالمواقع المستهدَفة، تماماً كما حصل مع التحالف الأميركي حينما بدأ باستهداف مواقع «داعش». فبعد سنة كاملة من بداية عمليات التحالف لم يعد الناس يتذكّرون منها إلا صور المنازل المدمّرة وحقول النفط المحترقة وأرقام القتلى بين المدنيين (على اعتبار أن صورهم لا تصل عبر الإعلام).

صياغة التدخّل إعلامياً

حينها لم تترافق أعمال القتل مع حالة تعبئة إعلامية لأن معظم وسائل الإعلام العربية والعالمية كانت في صفّ الولايات المتحدة، ولكن الأمر سيختلف الآن مع الروس، فهم لا يملكون ما تملكه أميركا من رساميل ولا يستطيعون إيقاف آلة الضخّ الإعلامي التي ستغرقهم وتغرقنا «بأرقام القتلى» و«صور الضحايا من المدنيين». شكوى الروس من هذا الأمر قد بدأت، فقد صرّح بوتين قبل أيام بأنّ المعلومات عن سقوط ضحايا بين المدنيين ظهرت قبل طلعات المقاتلات الروسية، وأبدى استعداده في ضوء هذا الهجوم لخوض حرب إعلامية إذا اقتضى الأمر. هو يعلم أنّ المواجهة على هذه الجبهة ليست سهلة، ولكنه سيخوضها في كلّ الأحوال، فحجم التدخّل الذي قام به على المستوى العسكري يفرض عليه أن يكون جاهزاً لأيّ اشتباك إعلامي، وهذه المرّة سيكون الاشتباك مختلفاً وسيذكّر الروس بحجم المواجهة التي خاضوها حينما تدخّلوا في أفغانستان لحماية النظام الشيوعي هناك من التمرّد الإسلامي الذي قام ضدّه. في تلك الحرب خسروا كلّ شيء بسبب مواجهتهم لأفراد متدرّبين على حرب العصابات جيداً ومندمجين في بيئاتهم التي كانت ضدّ التدخل السوفياتي، والصياغة الإعلامية لتلك المعادلة صبّت في مصلحة الأميركيين وحلفائهم الإسلاميين الذين استفادوا من التورّط الروسي وعملوا على أبلسته في كلّ مكان. الأبلسة الآن لن تكون سهلة كالسابق بسبب وضوح معالم الحرب أكثر وتورّط جميع أطرافها في عمليات القتل وتحطيم البيئات الاجتماعية ولكنها ستستمرّ بأشكال مختلفة، وستعتمد على حجم الضرر الذي ستحدثه الغارات الروسية في الأماكن المُستهدَفة. إذا حصلت جرائم جرّاء الغارات فسيواجه الروس أوقاتاً عصيبة لأنهم بخلاف الأميركيين لا يسيطرون على الإعلام والمنظومة التي يمتلكونها في المقابل لا تستطيع مهما كانت فعاليتها (وهي فاعلة إلى حدّ كبير) تفنيد كلّ الأخبار التي تتحدث عن آثار الغارات على البيئات المُستهدَفة. ولكي يستطيعوا المواجهة عليهم أن يتحدثوا بوضوح أكبر عن أهدافهم، وحين تتسبّب غاراتهم بسقوط ضحايا فيجب أن يعترفوا بذلك، وأن يشكلوا لجان تحقيق لمحاسبة المسؤولين عن هذه الجرائم، لأنهم إن لم يفعلوا فسيصبحون «هدفاً سهلاً» للإعلام الغربي وتوابعه العربية، ولن يكون بمقدورهم إنكار ما حدث كما يفعل الأميركيون باستمرار. الامبريالية عادةً تمتلك بنية إعلامية هائلة لإخفاء جرائمها، ولذلك تبقى دائماً بمنأى عن المساءلة حين تقتل أو تدمر بيئةً اجتماعية ما، أما القوى التي لا تمتلك هذه البنية وليست مؤهّلة لخوض حروب الامبرياليات فعليها امتلاك وسائلها الخاصّة «لإخفاء الجرائم» أو «التخفيف من وطأتها»، هذا إذا كانت قد ارتكبت جرائم فعلاً، وهو سؤال برسم الروس وتدخّلهم الجديد.

* كاتب سوري

والإرادات الشعبية، ومارست العسف والاستبداد والتمييز، ولو بدرجات معينة من سلم الارتكابات والارباكات المناهضة للقوانين والأعراف المعروفة. ولكن بالتأكيد اختلفت الجمهوريات بمحاولات متنوعة من الاصلاح والبناء العام والصراع مع القوى الاستعمارية والامبريالية العالمية التي عملت هي الأخرى في محاولات اعادة التاريخ وتكريس الهيمنة وتهديد الاستقرار والأمن الداخلي والشخصي للقيادات التي تولت ادارة الحكم في الجمهوريات، على خلاف مع الملكيات التي راهنت معها وارتهنت في اتفاقيات حماية وفتح خزائنها لاستغلال المستعمر والسيطرة التاريخية على مقدرات البلدان والشعوب ونهب ثرواتها واضطهاد الارادات الشعبية في كل اساليب القمع والاضطهاد المعنوي والمادي.

هذا الاختلاف ومهما كان جزئياً او محدداً شكل عامل قلق للمستعمر الغربي وأعوانه في المنطقة او أتباعه ومن تخادم معه في السلطات او في التوجهات العامة، ودفع من جانب آخر الى العمل على ردم الهوة فيه، ومنع التحركات الشعبية وقوى التغيير من تصعيده وتطويره الى سياسات واقعية قائمة ومؤثرة او طامحة للقيام بمهماتها الفعلية وإرادتها الوطنية والشعبية. وفي تجربة العمل السياسي في هذه الجمهوريات وفي مجابهة التحديات الخارجية وتهديدات العدوان واندلاع حروب خطيرة اندفعت باعتماد القوة العسكرية المركزية. وهذا الامر يحسب لها، فقامت ببناء مؤسسات عسكرية وطنية، تحولت بشكل او آخر الى رمز وطني معبر عن وحدة شعوب البلدان العربية الوطنية وقوة حمايتها من العدوان والحروب بكل أصنافها. ما شكل من جانب آخر مصدر إزعاج آخر للقوى الاستعمارية وتوابعها وخطط في المقابل أيضاً لاستهداف هذه القوة الوطنية، لا سيما بعد دروس حروب عديدة مع القاعدة الاستراتيجية العسكرية الغربية في فلسطين المحتلة. وقائع الحال تقول بأن الجمهوريات التي تواجه اليوم تحديات مصيرية، وهزات واسعة، ضمن خطط الاستعمار ومشاريعه، عليها استيعاب الدروس والتجارب والعمل، حتى ولو من جديد، مستفيدة من تراكمات التجارب ومن رصيد الوطنية والإرادات الشعبية على اعادة النظر بأوضاعها الحالية والتفكير العملي بالعمل المباشر في تنفيذ الاهداف التحررية وفق برامج تنموية وخطط تقدم وتطوير لبلدانها والحفاظ على كرامتها وشعبها ومحاربة مشاريع التفتيت والتقسيم والتدمير المتفشية اليوم على الصعد كافة. لماذا الجمهوريات العربية الآن؟ فالمشهد السياسي فيها يوضح صورة بانورامية لما يراد منها عملياً او يطلب منها، شعبياً ووطنياً وقومياً، وضرورة وقوفها صامدة امام الحملات والهجمة الصهيو غربية التي تريد إعادة عقارب الساعة وإنكار التاريخ.

في الختام لا بد من القول إن هذا الموضوع مهم وكبير ولا تغطيه دراسات او مقالات، ولكن لا بد من القول هنا ان الاشارات السابقة هي الاخرى مهمة ويجب الالتفات اليها وقد يتوفر وقت لمتابعتها ورصد التحولات لصالح الشعوب العربية وحركة التحرر الوطني والقومي فيها.

* كاتب عراقي

السيد نصر الله والحراك

رائد شرف

هل من تفاجأ من سماع كلام الامين العام لحزب الله يوم الجمعة 25 ايلول ورأيه بالحراك الراهن؟ اذا كان المقصود بالمفاجأة ان يمتلك المرء شعوراً بفقدان السيطرة مرفقاً بعلامة تعجّب ترتسم على الوجه، فالجواب لا، لم يتفاجأ أحد. ففئات جمهور الحزب والمتعاطفين معه، ممن يعرفون الحزب وهرمية قِيمه، والذين واللواتي يؤيّدون الحراك الراهن، انتظروا لا شك جواباً من اثنين: إما أن لا يتطرّق السيد نصر الله للحراك بتاتاً، وإما أن يؤيّده. وقد اختار السيد موقفاً بين الاحتمالين، سنعود الى تفاصيله ادناه. اما فئات جمهور الحزب الذين رفضوا الحراك ودانوا مبدأه، فقد تفوّقت على الشعور بالمفاجأة عند بعضهم النزعة الاوتوماتيكية الشائعة هذه الايام، القائمة على شكل «لن أبدي علامات التعجّب، إن الامور بخير وتحت السيطرة بشكل عام، وسنكون منتصرين بإذن الله». وهي نزعة شجّع عليها الحزب في ساحات تنشئته في السنين الخمس الماضية، لأسباب عقلانية شتّى، آخرها ضرورات التعبئة العسكرية في سوريا، ولو استقرّت على «سوقها» عند الناس فئات من الطفيليات المُتبجحة في الاعلام وعند بعض الطبقات الوسطى والوسطى الدنيا. ماذا كان رأي السيد نصر الله تحديداً؟ اعتبر بعض المُتحمّسين أنه أيّد الحراك. شخصياً، اعتقد ان هذا الاستنتاج فيه مبالغة. ان مجموع تعليقات السيد على الحراك توحي بأنه اعتبر ان الحراك ومطالبه الاكثر بروزاً هي شيء «عادي» او «طبيعي»، لا اكثر. لو كان أيّد الحراك لقال بوضوح: «ان هذا الحراك هو شيء طبيعي»، او ما معناه ذلك، ما قد يفتح الباب لسماع اسباب الحراك والتوقّف عندها، ثم طرحها على باقي الطبقة السياسية. لكنه لم يقل ذلك. ربما لأنه لم يرد ان ينشب خلافاً مع خصومه السياسيين وبعض حلفائه.

كان تعليقه في خانة ما أسميه «الواقعية»، لا يخرج عن السياسة المُعتمدة من «حزب الله» في السنين السبع الماضية. والواقعية هنا تعني نظرة ترى السياسة بمثابة أمر واقع، وواقع مُتعدّد التشعّبات والتجلّيات، ليس بمستطاع الحزب تعريفه بخطاب واحد يكون فَعّالاً ويؤدي الى تغيير الأمور، وهو بالتالي قرَّر أن يحافظ على ثبات هذا الواقع بقدر المستطاع، ويحترم حيثياته عندما يقتضي الكلام، في ظل غياب اي افق لتغيير قواعد ومضمون النتائج. «ان هذه الامور تَحصل»، هذا ما قاله السيّد عن الحراك. بقوله ذلك، يحترم السيّد الحراك وجمهوره بقدر ما لطالما احترم الحيثيات الجماهيرية لحلفائه كما لأعدائه. في موضوع أعدائه مثلاً، اعتمد الحزب التقليل من اطلالات رسميّيه في الاعلام، في السنين السبع الماضية، تجنّباً للأبلسة، ولإدراك قيادته ان ليس بمستطاعها تخطّي منظومة التحريض التعبوية التي تم تشييدها منذ سنوات 2005 و2006. والسيد لا يريد ان يعطي خصومه مادة اضافية لتغذية الكراهية عند جمهورهم، لأنه يدرك ان للحيثيات الجماهيرية وزنها، حتى لو لم تُجرَ انتخابات. هو يدرك ان هناك مستويات أعلى من الكراهية والقطيعة الراديكالية الطائفية التي يستطيع حزب «المستقبل» أخذ جمهوره اليها، فاتحاً الباب امام السَلَفية الجهادية للمزيد من التوسُّع على الارض الشعبية اللبنانية.

ليس المقصود هنا إثبات صوابية مطلقة للسيد في قراءة الأمور، بما فيها حراك الصيف. وهناك بعض الحالات لم يتمكّن فيها السيد من قراءة الارض الشعبية الوطنية جيداً، ويكفي ان اذكر منها مؤتمره الصحافي الداعي إلى تظاهرة الثامن من آذار عام 2005، حيث كانت عبارته الشهيرة «زوم ان، زوم آوت» وغيرها، المستفزّة لفئات من الجمهور اصبحت على إثرها مُهيأة لاستعدائه. مع أن خطأه آنذاك، في ظل وضع لبناني وعربي متحوّل ومتوتّر، يبقى بعيداً عن مستويات الاستفزاز المقصود والعدائي التي نقابلها في خطابات غيره من الحقل السياسي اللبناني. لكن موقف السيد يوم الجمعة الفائت، وبالرغم من الإملاءات البنيوية التي تحدّ من حرية خطابه، ما زال يقيم تقديراً للبديهيات: ان التأثير بالارض الشعبية بتنوعاتها لا غنى عنه، حيث استطاع المرء ذلك، والا فليتجنب المرء معاداتها. بل اكثر من ذلك، في عرضه للامور يوم الجمعة الماضي، بدا السيد وكأنه يقول إن «حزب الله» سيأخذ على محمل الجد وحتى لدرجة التعاون السياسي مع اي قوى تنبثق من الحراك او من الارض التعبوية الوطنية، على شرط ان تأخذ هذه القوى شكلاً مطلبياً وتمثيلياً واضحاً، أي أن تتنظم كحزب سياسي يمكن المرء أن يتحاور معه وأن يحاسبه. حتى ملاحظته عن وجود اتصالات للبعض في الحراك بالسفارة الاميركية لم تخرج عن اطار «الواقعية» هذه، هناك ناس يتواصلون مع السفارة الاميركية، فهذا ما لا يفاجئ في بلد مثل لبنان، انما لا يجب ان يعمي هذا الواقع، على اهميته، عن اولويات المرحلة، في ضرورة ان لا يخسر المرء تأييد غالبية الناس له. بفضل القليل الذي حققته هذه السياسة على مدى نصف العقد الماضي، وعلى قدر طبيعتها المحدودة والمُحافظة، يمكن للسيد اليوم ان يدعو علناً الى اجراء انتخابات نيابية على اساس قانون نسبي. فقط بفضلها يمكن للحزب ان يثق بان غالبية الناخبين على المستوى الوطني ستصبّ معه، حتى في حال تكوّنت كتلة جديدة من عشرة الى خمسة عشر نائباً في البرلمان منبثقين من مجهول خارج عن الطبقة السياسية الراهنة. هذا أيضاً ما لا تدركه الطفيليات المتبجحة التي تدّعي الكلام باسم المقاومة والتي تساهم على طريقتها بتضييق الحصار على المقاومة في الارض التعبوية.